بين العروبة والإسلام

● الاسلام في كافة مظاهره : في عقائده ، وعباداته ، ونظمه ومعاملاته ، لم يكن لطائفة معينة او لجنس خاص ، بل كان يطالب الانسانية كلها بعقيدة واسلوب في العمل ، ولا يفاضل بين الناس الا بمقدار ما يقدمون من اجل العقيدة ، وبنوعية ما يعملون طبقاً لهذه العقيدة .

● من حظ العرب ان اختيروا لرسالة الاسلام ، ومن حظ العروبة انها كانت احد الوية الاسلام . وهو الذي افصح عن مواهبها وساهم في تاريخها فامتزجت به في امجد ادواره ، والمسلمون في العـــالم لا يؤلفون قومية واحدة ولا وطناً واحداً .

● ان العروبة هي واقعنا الذي لا غنى لنـــا عنه ، وحاضرنا الذي لا حياة لنا بدونه ، ومستقبلنا الذي لا وجود لنا الا به . . مسلمين ومسيحيين ؛ والذين يخلقون الاكذوبة القائلة بأن الإسلام هو القومية العربية هم المستعمرون .

قد يتخيل البعض ان موضوع العروبة بالذات ، والفصل بينها وبين الاسلام مركب صعب . غير اني قبـــل كل شيء ، احب ان اصارح القراء الاعزاء باني افخر بعروبتي مثلما افخر باسلامي ، واني لاسمح لنفسي في هذا المقام ؛ ان اتبنى بعض الفرائد التي نطق بها الخالدون فأقول : لو لم اكن عربياً لتمنيت ان اكون عربياً ، ومن هذه الروح اصوغ عبارات بحثي هـــذا ؛ ومن وحيها سأحاول ان اسلط الاضواء حول هذه القومية العزيزة وانفخ في حناياها قبسة من نار الحياة ونورها ، وانفض عن مرآتها الجلية ، بعض غبار الزمن وبعض لطخات الصدأ ، عساها تعود كما بدأت قومية فتية بنّاءة ؛ تكمن فيها كل عوامل الخلود والبقاء .

فترة حاسمة :

ان التاريخ الآن يمسك قلمـــه ، ويتطلع نحو البلاد التي تشرق منها الشمس . ويرنو ببصره نحو الربوع التي تواكب مغربها ، والتاريخ حينما يمسك بالقلم ويرقب شعباً من الشعوب ، فان هذا الشعب قادم على اخطر مرحلة من مراحل حياته سلباً او ايجاباً .

ونحن العرب في هذا الزمن بالذات يحق لنا ان نتفاءل مسبقاً بالمستقبل الضاحك ، ويحق لكم ايها القراء الاعزاء أن تعتبروا انفسكم من الخالدين لانكم تواكبون فترة خالدة من تاريخ العرب ، هذه الفترة التي سيقرأ عنها احفادكم غداً ، وسيقولون : هنيئاً لهم لقد شهدوا يقظة العروبة .

سيقول البعض : انني اغرق في التفاؤل ، وسيقول آخرون لقد نطقت عاطفته . ولكني ادعو هؤلاء واولئك ، فاقول لهم انظروا الى مصر التي كانت الى عهد قريب تربط ماضيها وحاضرها ومستقبلها بالرعامسة والفراعنـــة ، وتسير في ذلك النهج حقباً طويلة من الزمن ، لاينالها منه الا الضيم والاحتلال والذلة والامتهان ، ثم اذا هي تصحو على فجر دافىء ، تنبع انواره من ذاتها ، من ذات الشعب المصري ،

فتظهر لهـــا حقيقتها العربية الصريحة ، وخيالها الفرعوني الكاذب ، وتفرض بهذه الحقيقة وجودها وارادتها واحترامها على دول الآرض جميعاً .

لست اريد من وراء ذلك ان اذهب الى ان العروبـــة هي التي نصرت ارض الكنانة ، أو انها على الاقل هي التي عاونتها على اجتياز المحنة ، والتغلب عليها ، ولست اريد من ناحية اخرى ، ان انفي فعالية الوطنية المحلية وصمودها الجبار في معركة الشعب المصري . ولكني اريد ان اقرر حقيقة واحدة ، وهي ان العروبة في مصر وفي سورية وفي الاردن وفي لبنان هي المرحـــلة الناضجة من مراحل تطور الوطنية . وانه في اللحظة التي يتفاهم فيها العرب جميعهم على انهم عقد واحد، يشع جمالا أخاذاً، ويشكل في مجموعه ثروة هائلة، اما في افراده فليسوا سوى بضعة احجار كريمة ، ليس لها قيمة العقد المنظوم ولا قدره . اجل في الوقت الذي يتعارف فيه العرب على اختلاف دولهم انهم عقد ثمين واحد ، وان رابطة هذا العقد هي العروبة فقد عرفوا الطريق الذي يمتد بهم نحو الغاية التي ينشدها جميع شعوب العالم ، وهي الرخاء والعزة والسيادة والاستقلال .

بين العروبة والاسلام :

وانه لمن المؤسف حقاً ، ان ينفخ بعض ذوي الاغراض من ابواق الاستعمار نغمـــاً طائفياً دنيئاً ، لا غاية له ولا هدف ، الا تفريق الكلمة وتصديع الصفوف والاطاحة بالوحدة الوطنية التي تجمع شتات فئات هذا الوطن، حول الميثاق الوطني المعقود عـــام ١٩٤٣ والذي اعتنقه لبنان الرسمي بمجرد دخوله الجامعة العربية وابرامه ميثاقها وتوقيعه على بروتوكول الاسكندرية .

هذه النغمة المقيتة، ارتفعت بها بعض الاصوات الناشزة، رداً على الموقف الذي وقفه الشعب اللبناني من قضية العـــدوان الآثم على مصر ، بقصد عزل لبنان عن

المجموعة العربية ،وشل كل نشاط يمكن ان يقدمه لخدمة القضية الكبرى التي يناضل من اجلها العرب .

وقد دفعتني هذه النغمة الى اختيار هذا البحث بالذات ،لأنها كانت تهدف الى الايهام بان العروبة تعني الاسلام . وانه لا يمكن ابداً الفصل بين العروبة ، كقومية والاسلام كدين؛ فهما متلازمان كل التلازم ، مندمجان كل الاندماج .

ومن المؤسف ايضاً ان يقع في هذه المزالق ـ عن حسن نية طبعاً ـ بعض قادة الفكر في هذا البلد، فيخلطون بذلك مع الاسف بين العروبة والاسلام ،ويزعمون ان مؤسس الاسلام هو مؤسس العروبة ، متجاهلين بذلك كل وقائع التاريخ وكل الحقائق العلمية التي هم ولا شك حريصون عليها حرصهم على معرفة الحقيقة .

وسنحاول الآن في هذا البحث ان نجلو هذه النقطة الدقيقة الخطيرة ، التي يتمسك بها بعضهم عن سوء نية مدفوعاً بعوامل كثيرة لا تشرف في كل حال ، والتي ينادي بها البعض الآخر عن حسن نية ؛ دون ان يتحروا بذلك الدقه العلمية والتاريخية .

ولسنا في هذا المقام نقف موقف المدافع عن العروبة؛ لاعتقادنا انها ليست بحاجة الى دفاعنا. ولا لنرد على فرد معين ، بل لنعرض بعض الحقائق التاريخية التي تثبت ان العروبة ليست فعلا هي الاسلام ، وانه وان كان من امجاد العروبة انها كانت جندي الاسلام الاول .. فمن مظاهر قيامها بنفسها ، ان الاسلام ـ في بعض مناسكه الدينية ـ قرر عاداتها وتقاليدها؛ وأقرها حتى انها في النهاية حملت اسمه ؛ وهي من أفعال العرب الأولين .

ثم إن الباحث في هذا الموضوع يصادفه منذ البداية سؤال واحد : ما هو الاسلام ؟ وما هي العروبة ؟ وما هي الصلة بينهما ؟ وهل كان الاسلام كدين سماوي لا يحمل على الاعتقاد بأنه ظاهر الرعاية للعرب دون غيرهم من الأمم ؟

الاسلام للانسانية :

لننظر الى الاسلام نظرة عاجلة؛ولنحاول أن نستخلص منه بعض الصور الناطقة بانه لم يكن في يوم من الايام دين العرب فقط لاعتبار واحد بسيط ، وهو ان الله حسب المفهوم الاسلامي هو رب العالمين ، وان محمداً حسب التعبير القرآني رسول للناس كافة .

والاسلام في كافة مظاهره : في عقائده وعباداته ، في نظمه ومعاملاته ، لم يكن انانياً قط ، ولم يحارب الاديان التي سبقته ، بل دعاها اليه للمجادلة والبحث بروح من الفهم العميق ،والسماح الرائع ،وسعة الصدر ، وحسن الخلق فقال : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي احسن ، وكان ذلك بعد ان أقر لجميع الناس بحريـــة العقيدة « قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا ومـــا أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وما أوتي موسى وعيسى وما اوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين احد منهم » .

وبعد ان وضع القاعدة المثلى للسلوك العقائدي الاسلامي الذي لايؤمن بالاكراه ويقدس العقل النير « لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » وبعد ان أكد ان محمداً ليس الا نبياً يوحى اليه ، كما اوحي الى عيسى من قبله ، وكما أوحي الى موسى من قبلهما ، وكما أوحي الى داود ونوح قبل اولئك جميعاً فقال تعالى « إنا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده » .

ولو ان الاسلام أقر للعرب بشيء من الفضل أو السابقة ، لرفع قدرهم وأجل شأنهم ، واظهر ذلك للملأ . ولكنه جعلهم مسؤولين عن الفكرة وتنفيذها كغيرهم من الناس ، وانه ليس لواحد من بني البشر ان يفضل أخاه ابداً الا بالتقوى (لا فضل لعربي على عجمي الا بالتقوى) وذكر العربي بالذ ت .ثم انه من ناحية أخرى

فرض على العامة إطاعة أولياء الامر ، دون النظر الى عروبتهم أو الى اعجميتهم ، ودون التفريق بين ألوانهم وأجناسهم فقال : (اسمعوا وأطيعوا ولو ولّي عليكم عبد حبشي رأسه كزبيبة) .

ثم ان قريشاً وهي القبيلة التي كان منها النبي ، وشرفت بنبوته في أعين الناس بين العرب ، وبلغت شأواً بعيداً ، قريش هذه فضل بعض الفقهاء شرف العلم على نبالتها حينما بحثوا قضايا الكفاءة بين الزوجين .

فأين هي — قرائي الاعزاء — آثار تذليل الاسلام للعرب ، حتى يتجرأ الناس على القول بأن الاسلام هو العروبة ؟

اسمحوا لي ان اكون صريحاً الى ابعد حدود الصراحة ، وان أسير في الشوط حتى النهاية . فهناك بعض الاسئلة تحرق شفاه الناس ولا يبدونها . وهناك بعض المخاوف تدمدم في صدورهم ولا يظهرونها ، وأنا منذ نشأت عدو التخفي والخوف ، والرياء والحذر ، اذا كانت بضاعة رائجة بين الاخ وأخيه والشقيق وشقيقه .

العروبة لا تخيف احداً :

لنتصارح ، فالعالم بأسره يعلم ان العروبة لا تخيف ، وليس منها ادنى خطر على جميع العقائد ، اسلامية ومسيحية ويهودية .

قلت اسلامية ، لان فريقاً من المسلمين يعتبر العروبة خطراً على الاسلام كاعتبار بعض المسيحيين لها ، فيجب محاربتها والقضاء عليها في نظر الفريقين جميعاً .

ان العروبة لا تخيف ... لأنها وطنية سامية وقومية هادية ، تجمع كل الملل والنحل . ففيم الحيرة إذن ، وعلام الريبة والشك ؟ أمن الاسلام ، أمن ذلك الدين الحنيف العادل المترفع ؟

ان الذين يحاربون العروبة يريدون لها ـ قوة واقتداراً ـ ان تكون في صف الاسلام، حتى تتكون ضدها جبهة من تجار الاديان المتحالفة ، ولان نعتها بالاسلام، وجعلها بديلا عنه وجعله بديلا عنها يخدم هؤلاء التجار ، ويوفر عليهم عناءً كبيراً في إذكاء نار الطائفيـــة وبث سمومها ، وبالرغم من اننـــا بصدد البرهنة على ان العروبة قومية من القوميات التي كثر فيها المسلمون وليست الاسلام نفسه ، بالرغم من ذلك، فاننا سندفع بايجاز شديد عن هذا الدين بعض ما اتهم به معتقدوه، دون ان نجافي عنصر الموضوع ؛ لأن العروبة قرينة الاسلام وشريكته في هذا الاتهام .

المساجد والصوامع في القرآن الكريم :

لنستمع معاً الى قول الله تعالى « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله » ألا نلاحظ فيه انه يعتـــبر صوامع الرهبان شقيقة لمساجد اتباع الاسلام ؟ ثم ألم يكن الاسلام نبيـــلا حينما قدم معابد النصارى واليهود على مساجد المسلمين ؟ ان سلوكه في هذه الناحية سلوك مفعم بالتسامح والاكبار والاجلال لأهل الكتب السماوية من اليهود والنصارى . فقد حظر على المسلمـــين ان يستخدموا معابد الذميين لآداء الصلاة حتى لا يدعي المسلمون فيما بعد حقاً عليها . وما زال يتخايل أمام ناظري ظل الخليفة العادل عمر ابن الخطاب ؛ وهو قائم يصلي خارج كنيسة بيت المقدس، لا لشيء إلا ليؤكد للمسلمين عملياً احترام المسلم لأخيه المسيحي احتراماً يقوم على محبته وتقديره للكنيسة .

أما ما فعله قبل ذلك الصحابي الصادق ابو بكر رضي الله عنه ، وما اوصى به جنده حين سيّرهم في سبيل الله ، من اجتناب البغي والعدوان ، والامتنـــاع عن قتل الاطفال والنساء والشيوخ ، وحين نهاهم عن التعرض بقليل او كثير للرهبان المنتثرين في صوامعهم في البلاد ، كل ذلك اصبح مشهوراً بـــين الناس ومعروفاً ، ولست اجد فائدة من تكراره في هذا المقام .

الملوك المنحرفون :

لقد احترم ديننا أتباع الاديان الاخرى احتراماً لايكنه حزب سياسي في القرن العشرين لأنصار حزب سياسي آخر ، واذا كانت الظروف السوداء قد جعلت على بعض العروش المسماة على الاسلام ملوكاً يحملون اسماء اسلامية ، ويحكمون بغير ما أنزل الله ، كما حدث في الازمنة الاخيرة للاسلام ، فليست هذه جريمة الدين بل جريمة رجاله ، وليست مبرراً للحملة عليه بل على القائمين بأمره .

ولكي نظهر مدى هذا الاحترام الذي يضمره الاسلام لسائر ابناء الديانات الاخرى ؛ علينا ان نلجأ الى القرآن الكريم وهو اصدق دليل عندنا ، وفيه مايدل بوضوح على اعتباره التقديسي لروح الموسوية الصحيحة إذ يقول « وتمت كلمة ربك الحسنى على بني اسرائيل بما صبروا » وفيه ما يطمئن المسيحيين صراحة بأنه يجل المسيحية الربانية ايما اجلال ، ويكرم نبيها ايما تكريم إذ يقول له «ياعيسى اني متوفيك ورافعك الي وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا » .

رسالة الاسلام وحقيقة القومية :

اظنني استطعت الايضاح عن موقف الرسالة الاسلامية من اتباع الرسالات الاخرى ،واستطعت وضع النقاط على الحروف؛حول بعض الالتباسات التي كانت تثار ، وتثور من ورائها الشكوك عن ارتباط الاسلام بالعروبة ؛ وانني لاعتقد انه امكنني الاثبات ، بأن الاول هو دين سماوي لاتهمه القوميات ولا الشخصيات بقدر ما يهمه العمل والاخلاص ، وان الاخيرة هي قومية قائمة بذاتها ، لها تاريخها وحضارتها ومدنيتها السابقة على الاسلام وعلى المسيحية ايضاً . وانها تتميز بالمعنى التاريخي بخطوط كبرى ، وشخصية منفردة جديرة بالبحث والدراسة .

بقي الآن ان نثبت للعروبة تاريخها المنفصل عن الاسلام ، وحضارتها الفردية ذات الطابع العربي الخاص ، وانها كان لها رجالها وامجادها ، وكانت لها حقبة من الزمن لعبت فيهـــا الدور الاساسي الاول ، في سياسة هذه البلاد ، وحكمهـــا وشؤونهـــا . وقبل ان نخوض هذا البحث التـــاريخي الصرف ، نحب ان نوجه الانظار الى بعض الملاحظات الهامة التي تعبر عن وجهة نظرنا تعبيراً صادقاً بدون غموض .

اولا : على الذين يؤمنون بأن الاسلام هو العروبة ان يؤمنوا بالمقـــابل بأن المسيحية هي الانكليزية مثلا أو الافرنسية أو الايطالية أو الاسبانية .

ثانياً : من حظ العرب ان آمنوا برسالة محمد وحملوها الى جميع الانحاء ، واذا كان انتسابهم اليه ، يجعلهم بدلا عنه ، فلماذا تكون الاندونوسية بديلته ايضاً ؟

وفي هذه المناسبة تحضرني حادثة طريفة ، كلما مرت بخيلتي ازددت اعجاباً بالعروبة ، وتعلقاً بها ، وازددت ايماناً بأننا هنا في لبناننا الحبيب ، حملة رسالتها قبل غيرنا من الشعوب العربية . والحادثة هي : أن اول مجمع لغوي عقـــد في الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية ، وجرى فيه التساؤل الذي يحيرنا الآن ، وهو : هل نحن عرب قبل ان نكون مسلمين أم نحن مسلمون قبل أن نكون عرباً ؟ .

وجواباً على هذا التساؤل تبارى مندوبو الدول العربيـــة في رسم الحلول وترتيب النتائج .

امـــا مندوب لبنان وكان يومها الشيخ عبد الرحمن سلام امين سر الفتوى إذ ذاك فقد ارتجل هذين البيتين :

قال عبد العزيز قولا حكيما والصواب الذي يقول الامام
نحن قبل الاسلام عرب ولكن نحن بعد الاسلام عرب كرام

حضارة العرب قبل الاسلام :

والآن لنرجع الى التاريخ القديم نقلب صفحاته بإمعان وتجرّد ، بحثاً عن حضارة العروبة ومدنيتها .

هذه واحة خصبة تمتد في الطرف الشمالي من الصحراء العربية يكتنفهـــا دجلة والفرات ، وسهول حلب وحمص وانطاكية ، وواحة دمشق وسهول حوران .

انها تدمر عاصمة أذينة والزباء ، عـــاصمة الدولة الفتية التي لعبت دورها الخالد في التاريخ .

لقد تنبه الرومان الى الموقع الستراتيجي الهام لهذه الواحة ، فأرادوا ان يستولوا عليها نحو عام ٣٦ قبل الميلاد. فهاجمها قائدهم مرقس انطونيوس عندما كان عائداً من حرب الملوك الارشكيين .

وما ان وصلت انباء هذا الغزو الى مسامع التدمريين العرب ، حتى هبوا لملاقاة القائد الروماني الغازي دفاعاً عن مدينتهم ، ونشبت بين الفريقين معركة من اعنف المعارك قدّر فيها للتدمريين ان ينتصروا وان يحطموا النير الاجنبي .

ولكن الرومانيين لم ييأسوا فهم يعرفون اهمية المركز التجاري والحربي لمدينة تدمر ، ويعرفون ان الاستيلاء عليها ضرورة من ضرورات البقاء لامبراطوريتهم ؛ فعمدوا الى فرض الحصار الاقتصادي عليهـــا ، وانبروا يعتدون على القوافل التدمرية ، وينهبونها بعد ما صمد في وجههم جيشها الباسل .

وظلت تدمر على صمودها نحواً من قرن ، ولكنهـــا اضطرت امـــام الضيق الاقتصادي الناتج عن الحصار ، وتوالي غارات الرومان **على تجارتها** ، اضطرت الى الارتماء في حضن الامبراطورية .

ولكن ارغامها هذا لم يفقدها طابعها الحضاري ، ولم يوقف نمو مدنيتها مما ساعدها بعد قليل على الانتفاض والثورة في وجه الفاتحين.

وكان ذلك في عهد اذينة الاول ابن السميذع وهو من قبيلة عربية كبيرة من القبائل المعروفة عند الفرنج باسم Sarrasins وهي محرفة من لفظ « الشرقيين ».

لقد كان أذينة يتصرف في صبـــاه كما يقول المؤرخ (ن . بوليون) تصرف الرجل ، وكان يصطاد السباع والفهود والدببة وغيرها من الوحوش الضـــارية . وكان يحتمل في سهولة ويسر الحر اللاهب والبرد القارس في السهول والجبـــال والغابات . كما كان يتحمل متاعب هذا الصيد في رضى وسرور ، وبفضل هذه الرياضة المفضلة استطاع الا يرى أوار القيظ ، واهباء الزوابع في معاركه فارس غير امر عادي لا يعبأ به ولا يؤبه له .

لقد كان اول عمل قام به اذينة العربي خلع سلطة الرومـــان ، وتحرير تدمر ، والتحالف مع سابور ملك فارس الذي كان خطره يقترب يومئذ من بلاد الشمال .

غير ان سابور مني في احدى معاركه مع الرومان باندحار هائل ، حمله على التراجع الى الفرات ثم الى فارس ، ومكن للخطر الروماني ان يقترب من الشرق ومن تدمر بالذات ، فأدرك اذينة ان الرومان سيسحقون جيشه ، وسينتقمون منه جزاء ثورته عليهم ، وادرك ان سابور حليفه لا يستطيع تقديم المعونـــة اليه بعد اندحاره الفظيع في بر الشام امام جحافل الرومان ، فلجأ الى ذكائه وسعة حيلته كيلا يعرض تدمر لاستعمار روماني جديد .

وقرر سلوك نهج سياسي جديد ينقذ مملكته ، فأعلن ولاءه للرومان ؛ وذهب لمحاربة سابور باسمهم ، ثم ارتد الى تدمر وقبع فيها يترقب الفرص ويتحينها للسيطرة على جميع البلدان العربية وطرد النفوذين : الروماني والفارسي معاً .

ومرت روما بعهد الانحطاط والضعف ، وكان سابور قد استعاد قواه فشن على

الرومان حرباً ثأرية كتب له فيها النصر .

وفكر اذينة في موقفه تجاه هذا الوضع، واحس ان سابور يبيت له الشر فحاول ان يتقرب اليه تجنباً للاصطدام به ، إلا ان سابور داخله الغرور والصلف فكان لا مفر لأذينة من ان يحاربه .

وقدر للبطل العربي ان يدحر سابوراً وجيشه ، وان يحطم كبرياءه وعنجهيته ، بما أوتيه من قوة البأس والذكاء ومهارة التصميم .

وانكفأ اذينة لمقاتلة الرومان فسار الى حمص، وحاصر الجيوش الرومانية فيها وتمكن من فتح المدينة وقتل قائدها (كياتوس) .

وتم لأذينة اخراج الرومان من شمالي سورية ، وتحقق على يده قيام مملكة عربية مستقلة .

وكان اول ما سعى اليه مؤسس هذه المملكة ، هو القضاء على الاضطهاد الذي كان نصارى الشام في انطاكية وحمص ودمشق وقيسارية عرضة له ، فأطلق لهم الحرية الدينية واوعز الى الوثنيين ــ وكان هو وثنياً ــ اوعز اليهم الا يتعرضوا للنصارى في قضاء فروض عبادتهم ، واباح لهم إقامة البيع والكنائس .

ولكن أذينة لم يفسح له لتزدهر الحضارة العربية التدمرية على يديه ،فكثيراً ما يكون المصلحون الثائرون أول الضحايا لثورتهم . وهكذا قدر لاذينة، فلقد غدر به احد ابناء عمه ، بينما كان يتوجه الى حمص لقتال القائد الروماني هرقليوس .

قد يقول قائل : ان الطموح لا الاحساس العربي هو الذي دفع أذينة لان يبني ملكاً له ... فنجيب : ان عنصر الطموح لا يمكن نكرانه حقاً ، ولكن الاحساس القومي كان هو أهم الدوافع التي حملت أذينة على التمرد والوقوف في وجه أقوى دول عصره ، بل الدولتين اللتين تسيطران يومذاك على العالم وأعني بهما الفرس والرومان .

فلقد حز في نفس هذا البطل ان يظل قومه مطايا اطماع الفاتحين ، وان تظل بلادهم موطئاً لسنابك خيلهم؛ فآثر المغامرة ونذر نفسه لتحريرهم من العبودية ، وجاءت من بعده زوجته الزباء او زينب او زنوبيا كما اطلق عليها الرومان واليونان ، جاءت من بعده تكمل رسالته وتعمل على ازدهار المملكة .

فلقد تولت الحكم في سنة ٢٦٧ ميلادية ، بعد أن ورث ابنها البكر « هبة اللات » لقب ملك الملوك ومصلح الشرق .. واخذت تنظم شؤون مملكتها وتوجه اهتمامها — جل اهتمامها — الى الجيش، وتشرف بنفسها على التمرينات العسكرية، وتشاطر جندها شظف العيش وخشونة الحياة ، وتعد نفسها لتحمل اعباء القيادة.

وكان النفوذ الروماني بعد وفاة أذينة قد انبسط من جديد على المملكة التدمرية فراحت الزباء ترقب الاحداث ، حتى اذا دبت الفوضى في الامبراطورية الرومانية اعلنت ابنها « هبة اللات » قنصلا ثم امبراطوراً .

وكانت الخطوة الثانية التي أقدمت عليها هي ضرب نقود باسم ابنها الامبراطور ووضعها في التداول ، وفي عام ٢٧٢ ميلادية قامت بهجوم صاعق على مصر فخلصتها من قبضة الرومان، بعد ان سيرت لهذه الغاية جيشاً مؤلفاً من سبعين الف مقاتل يقوده (عبدوس) أو زيد كما يذكر الاستاذ كرد علي في كتابه خطط الشام.

وما كادت انباء النصر تصل الى تدمر ، حتى سارعت الزباء فأعلنت نفسها قيصرة و « هبة اللات » قيصراً ، وضربت نقوداً جديدة تحمل صورتها ولقبها الجديد كما تحمل صورة « هبة اللات » ولقبه .

وسار عبدوس الظافر الى آسيا الصغرى ، فبلغ أنقرة وسواحل البوسفور ، وكانت غاية زنوبيا من هذه الحملة الجديدة ، تحرير آسية من النفوذ الروماني، ولكن جيشها عاد دون قتال عندما لاحظ تصميم الآسيويين على ابقاء النفوذ الروماني .

وكان من الطبيعي ان يحقد الرومان على تدمر ؛ وان يحاولوا هدم سلطانها، فحشدوا قواهم ، وهاجموا مصر ، فأعادوا سلطانهم اليها رغم مقاومة المصريين

الضارية . عندئذ رأت زنوبيا ان تركز الدفاع عن مملكتها ، ولكن (اورليان) امبراطور الرومان ، وهو الذي يعرف بسالة التدمريين ، لجأ الى الحيلة والخديعة فتظاهر بالانكسار في احدى المعارك ورجع عن انطاكية ، ثم أمر جنوده بنصب كمين وراء تلال المدينة وبساتينها .

وظن التدمريون ان الرومان قد هُزموا فعلا ، فاندفعوا ليقعوا بالكمين ويمنوا بخسارة فادحة ، رغم براعة عبدوس في الانسحاب الى حمص ليجعل منها خطاً دفاعياً جديداً عن المملكة .

وفي سهل حمص رأت الزباء ان كفة الرومان العسكرية هي الراجحة فجمعت مجلس قيادة الحرب للتشاور ، وسرعان ما تقرر التراجع الى تدمر واتخاذها حصناً أخيراً .

وحاصر أورليان تدمر وطال حصاره لها ، وعز على الزباء ان تستسلم فامتطت هجيناً وانطلقت قاصدة بلاد فارس لتطلب نجدة سابور ، ولكن جنود الرومان أدركوها وهي تعبر الفرات فقبضوا عليها وأعادوها اسيرة .

وعظم عليها ان تنهار مملكتها ، فأعلنت وهي في اسرها الصوم عن الطعام الى ان فاضت روحها ، فانطوت بموتها صفحة من صفحات النضال العربي ، وانهارت تدمر عاصمة الثورة على الاستعمار في القرن الثالث الميلادي ، وحاضرة العاهلين العربيين العظيمين أذينة والزباء .

الغساسنة وبنو تغلب ومملكة سبا :

تعالوا معي نسير عبر التاريخ ... ونودع تدمر وحضارتها ، لننشر صفحة اخرى من صفحات المجد العربي قبل الاسلام .

ها نحن أولاء .. في مشارف الشام بين مضارب الغساسنة ... فهلموا نستنطق التاريخ عن امجاد هؤلاء السمر الأشاوس ، الذين بنوا ملكاً ، وأقاموا حضارة ، قبل انبثاق الفجر الاسلامي .

ان الحديث عن الحضارة النامية في مرابع هؤلاء العرب حديث محبب ، ولكنه اثير ايضاً عن قبيلة اخرى مسيحية عربيـــة ، هي قبيلة بني تغلب التي اشتركت في معارك عربية خالدة ، واشتهر منها شاعر كبير هو الأخطل . وأجـــدني الآن مدفوعاً لتلمس معالم حضارة عربية اخرى في الصحراء العربية السمراء ، وفي اليمن التي أطلق عليها الفرنجة منذ القدم لقب : العربية السعيدة .

تعتبر بلاد العرب الجنوبية من أقدم مراكز الحضارة عند الامم الساميـة ، إذ كان موقع اليمن الجغرافي من أهم الاسباب التي ادت الى نشوء حضارة مترفـة في ديارها ، فسبقت بذلك المناطق الشمالية من الجزيرة العربية . وتتمتع هذه المنطقة بخصب وافر في جبالها العالية وهضابها المخضرّة ، وسهولها الفسيحة ، كما تتمتع بحكم وجودها على طريق الهند ، بموقع تجاري بالغ الاهمية ، وقد ساعد هذان العاملان من ازدهارها ونمو الحضارة فيها ، ولقد أطلق الدكتور حتي على عرب اليمن اسم فينيقيي البحر الجنوبي ، لانهم رسموا خرائط هذا البحر ، وسيطروا على رياحه ، وتحكموا في تجارته في الالف والخمسمائة سنة قبل المسيح .

وكانت لليمنيين طرق تجارية أخرى في البر من حضرموت الى قارب ، ومنها الى مكة والبتراء ، ثم الى سورية ومصر والعراق . وكانت لغة سكان تلك البلاد اللغة الحميرية ، أي اللهجة العربية الجنوبية ؛ الى زمن يقرب من الفتح العربي ، حين احذت اللهجات الشمالية تتمتع بقوة وعزة ، بينما اخذت اللهجات الجنوبيـــة تتدهور وكان ذلك لفقدان بلاد اليمن حريتها واستقلالها ، فتدهورت حضارتها وانحطت ، فاستلزم ذلك انحطاط اللهجات الجنوبية ، وتلاشت لتحل محلها العربية الشمالية التي كانت تتمتع بدفق من الشباب والفتوة .

اما الدول العربية التي تداولت الارض اليمنية ، فأقدمها الدولة المعينية التي ازدهرت في اليمن بعد سنة ٦٥٠ قبل الميلاد .

وقد سيطرت في نهضتها على معظم اقسام الجزيرة العربية ، وما تزال معين العاصمة التي تحمل اسم الدولة المعينية الكبرى حتى اليوم ، كما ان معان المصرية تدلنا على امتداد تلك الدولة الى أطراف البلدان المجاورة للجزيرة .

ولقد استطاع المؤرخ « موللر » ان يكتشف اسماء ستة وعشرين ملكاً من ملوك دولة المعنيين اليمنية .

وكان السبائيون ورثة المعنيين ، قد بسطوا نفوذهم وسيطرتهم على جنوبي الجزيرة العربية وحكموها ، وكانت عاصمتهم قديماً (مراوح) ثم اصبحت مدينة مأرب المشهورة بسدها العظيم ، وكانت هذه المدينة ملتقى الطرق التجارية بين الشرق والغرب .

المملكة الحميرية :

وبعد سنة ١٥٥ قبل الميلاد ، يبدأ عهد دولة عربية جديدة ، هي المملكة الحميرية الاولى التي امتد بقاؤها حتى سنة ٣٠٠ بعد المسيح وكانت عاصمتها (ظفار) ويروي لنا التاريخ قصة القائد الروماني (اليوس غاليوس) الذي حاول غزو اليمن على رأس جيش روماني لأهميتها التجارية ، ولكنه لم يوفق في غزوه وعاد مع بقايا جيشه المنهزم الى مصر .

في هذه الحقبة من التاريخ ، عبر العرب أرض كوش ، ووضعوا فيها اسس المملكة الحبشية ، فكان لهم الفضل الاول في انشاء تلك الحضارة الحبشية . وبنى ملوك حمير ، تخليداً لاسمهم قصر رغدان ، الذي بقي قائماً نحو (٦٠٠) سنة وشاهده الهمداني ووصف روعته ، وما حوى في بنائه من آيات الفن والزخرف .

حضارة اليمن :

وفي القرن الاول بعد المسيح، ينحرف التاريخ انحرافاً خطراً ؛ يؤدي في النهاية الى تلاشي سيطرة كل من اليمن وتدمر والبتراء ، وذلك ان العرب اليمنيين وكانوا كما قلنا يسيطرون على طرق التجارة بين الشرق والغرب ، ويفرضون رسوم المرور على البضائع، ويجبون منتجات بلادهم بأسعار باهظة . وكان عرب البتراء وتدمر والعراق، يتحكمون من جانبهم بالتجارة الشرقية الى ان سقطت مصر بيد الرومان؛ فأعاد بطليموس الثاني فتح القنال القديمة بين النيل والبحر الاحمر ، وتمكن الرومان بمساعدة الأحباش من الوصول الى المحيط الهندي ، فتم بذلك القضاء على السيطرة التجارية لليمن والبتراء وتدمر . وبدأ عهد الانحطاط في اليمن مع قيام الدولة الحميرية الثالثة ، التي تدخل المسيحية واليهودية في ايامها بتلك الاصقاع ، فتستبدل الحكم وينقسم عرب اليمن الى يهود ونصارى، ويتآمر «ذو نواس» آخر ملوك حمير على نصارى اليمن الغربي، لخضوعهم لنفوذ الحبشة، فيدبر لهم مذبحة في عام ٥٢٣ م ويتنادى النصارى الى الثأر، ويعبر سبعون الفاً من نصارى الحبشة بأمر من امبراطور بيزنطية ارض اليمن، ليتحكموا بأهلها جميعاً من نصارى ويهود بعد ان زعموا انهم جاءوا لحماية النصارى والثأر لهم .

وتجدر الملاحظة هنا ان هذا الاسلوب الاستعماري، ظل الى يومنا هذا وسيلة بارعة من وسائل الدول الكبرى لتفريق الشعوب الصغيرة واستعمارها . وفي هذه الفترة يتهدم سد مأرب العظيم على يدي القائد الحبشي (أبرهة) ويتعذر ترميمه ، ويهجر بنو غسان واللخميون اليمن الى حوران والحيرة ، وكذلك يفعل الكثيرون من بني طي والتنوخيين وكندة ... وكثير غيرهم من عرب اليمن .

وبقيت اليمن مستعمرة حبشية الى ان قام (سيف بن ذي يزن) يريد تحريرها بتعاونه مع الفرس، ولكن آمال القائد العربي اصيبت بالفشل حين وجد ان الفرس ينوون الحلول مكان الجيش الحبشي في استعمار اليمن .

وهكذا استبدلت اليمن استعماراً حبشياً باستعمار فارسي، ظل مسيطراً الى ان ظهر عرب الشمال في القرن السابع بعد المسيح في احدى الحملات التي شنها اتباع الدين العربي الجديد .

نهاية المطاف :

هذه ملامح من حضارة العرب قبل الاسلام ، وليس باستطاعة أي مؤرخ مهما كانت مقاصده وغاياته ، ان يشوه حضارة اليمن الزاهرة ، أو ان يتجاهل الانباط ، حلقة الاتصال بين تدمر وغزة ، وخليج فارس والبحر الاحمر واليمن ، او اهمال حضارة سلع وتدمر والمناذرة والغساسنة .

وهكذا نسير في معارج التاريخ ، فنجد المسيحية تدخل الجزيرة فينتصر الكثيرون من ابنائها ، ثم تنبثق الارض العربية عن الرسالة المحمدية، فيكون الاسلام دين القومية العربية وابناً عبقرياً لها .

موجات الاستعمار والبلاد العربية :

كيف لا يكون العربي عربياً لأنه اعتنق المسيحية او الاسلام ؟ وما علاقة الدين ـ كرسالة سماوية انسانية لكل الناس ـ بالقومية المختصة بشعب من الشعوب؟ لقد كانت العروبة ثم كانت المسيحية ، وكان بعدها الاسلام فعاشت هاتان الديانتان السماويتان في الارض العربية شقيقتين متجاورتين متجانستين . فمن اين جاء هذا الوهم الشائع بان العروبة تعني الاسلام ؟ وبأن المسيحيين في هذا الشرق العربي غرباء؛ ليس لهم من امجاد هذه الامة العريقة ما للمسلمين ؟

انه الاستعمار... الاستعمار الذي يحاول دائماً ان يندس في صفوفنا ليفرق ويسود، الاستعمار التركي الذي جاء من قبل ليحتضن المسلمين كما يدعي ، فاذا به نير ثقيل

يثقل أكتاف المسلمين قبل المسيحيين ، واذا بالثورة التحررية تنطلق من صفوف كل المواطنين الشرفاء، دون النظر الى دياناتهم المختلفة ، واذا باعواد المشانق ينصبها السفاح التركي جمال ، لقادة الحركة التحريرية مسلمين ومسيحيين ، واذا بالدماء المهراقة تنصهر في وحدة وطنية رائعة ، هي شيء من هذا القبس الحي المتوثب في روح كل فرد . انه الشعور القومي ، الشعور بالوطنية الصحيحة الصادقة التي تلف الجميع في النكبات وتصهرهم ببوتقة الوحدة الوطنية .

ويمضي الاستعمار التركي غير مأسوف عليه ، وتنشق هواء الحرية ملء رئاتنا ولكن هذه الحرية ، ما تلبث ان تختنق بين قبضتي عملاق جديد من عمالقة الاستعمار ، انه الاستعمار الفرنسي وزميله الانكليزي الذي جاء هذه المرة ليحمي المسيحيين من المسلمين . وكانت وسيلته هذه المرة تجزئة الوطن الواحد الى اوطان وكيانات ، كان بعضها من نصيب فرنسا ، والبعض الآخر لقمة سائغة للانكليز .

ولكن الاستعمار أثبت مرة أخرى انه لا يحمل اليمن والخير والسعادة لفريق من المواطنين دون الآخر، غير انه يحمل لهم جميعاً الذل والمكر، والحقد والاستغلال وشرور العبودية . فاذا بالنضال من اجل الحرية يتجدد قوياً عنيفاً عند جميع المواطنين مرة أخرى تحت راية الوطنية الحقة، التي يتسع صدرها لجميع الديانات السماوية الكريمة .

هكذا شاء الاستعمار ان يقنع الاقلية المسيحية في الوطن العربي ، أن وحدة هذه الأقطار هي وحدة دينيـــة فحسب ، يجمعها الاسلام ، وتاريخ الاسلام ، ورسالة الاسلام ؛ ولكن الفئات الواعية كانت تلقم هذا الاستعمار حجراً كلما طاب له ان يردد هذه النغمة ليمتص خير ارضنا ويسرق رخاءها .

ليعلم الاستعمار :

ألا فليطمئن الاستعمار أياً كان نوعه ، على سلامة المواطن ، اي مواطن في هذه

الديار ، وليفهم ان المسيحيين من هذه الامة عرب قبل غيرهم ، لهم ما لغيرهم من أمجاد العروبة . ساهموا في بناء عزها ، وانهمرت دماء شهدائهم مع دماء اخوانهم المسلمين ، كلما تعرضت هذه البلاد لجور الطغاة الغزاة ونكباتهم .

وليعلم الاستعمار الذي ينصب نفسه وصياً وحامياً لحقوق الشعوب الصغيرة ، ليعلم اننا جميعاً بخير ما دام هو بعيداً عنا .

لقد كان هذا السبب من اهم الاسباب في اشاعة هذا الوهم المغرض ، ولكنه لم يكن الوحيد ، فلقد فصلتنا عهود الاستعمار البغيضة عن التاريخ العربي ، فجهلناه أو جهله معظمنا جهلا فاضحاً . وساعد على ذلك الثقافة الاجنبية التي لم تكن تلقننا العلوم فحسب ، بل تلقننا معها ان ننسى تاريخنا ، وان نهمل تراث اجدادنا الحضاري ، ليكون جيلنا جيلا منقطع الصلة بماضيه ، يعايش حاضره الاسود القاتم بائساً محطماً ، فيندفع الى احضان الحضارة الغربية التي تقدم اليه على اطباق من ذهب ، فيكون بذلك قد فقد عروبته الاصلية ، واصبح عضواً مشلولا غير ذي فاعلية في جسم العالم الكبير .

كانت هذه الاسباب تتراكم على الشرق العربي ، في فترة سوداء من تاريخه ، في عصر انحطاط تروج فيه الشائعات ، وتسود فيه المغالطات ، وبعض الناس ، والواعون منهم يحاربون اخطاراً أكبر من هذه ، والبعض الآخر يتخبط في محيط من الجهل طاغ ، ونحن واثقون في هذه الفترة التحررية التي تحياها بلادنا ، ان الضباب سينقشع ، وان الحقائق ستبدو جلية واضحة حين يكتب تاريخنا من جديد ، وحين نقضي نهائياً على هذا الدخيل الكريه ... الاستعمار ، وحين نقضي على اطماعه واذنابه ومطاياه في بلادنا .

دور الاسلام في الوطن العربي :

بقي علينا ان نوضح مكان الاسلام في الوطن العربي .

ان القومية كما نعلم هي هذه الارض التي تنمو عليها مواهب الأمة من آداب وفنون وعلوم وحضارة . والاسلام في تاريخ العروبة ثورة تحريرية نضاليـــة وانتفاضة جريئة لهذه الأمة ، كشفت عن غيوم الجاهلية ، وحررت الشعب العربي في سورية ولبنان وفلسطين والاردن ومصر من نير الرومان ، كما حررت العراق من نير الفرس .

انه انقلاب جذري في حياة العرب وفي نفوسهم ، أهّلهم لقيـــادة العالم القديم لتحقيق مثل قيمة ، وحمل رسالة الخير والحق والعدالة لكل الناس .

فالاســـلام اذاً في حقيقته يفصح عن مواهب العروبة وعبقريتها ، ساهم في تاريخها وحمل رسالتها فامتزج بها في امجد ادوارها . ومع هذا فالاسلام ليس العروبة ، والقضية العربية ليست قضية اسلامية لان في العرب مسلمين وغير مسلمين . ولأن القومية غير الدين .. والا لوجب ان يؤلف المسلمون في العالم كله قومية واحدة ووطناً واحداً ، وان يؤلف المسيحيون بدورهم قومية واحدة ووطنا واحداً ، وهذا مغاير للحقيقة والواقع .

ولماذا نذهب بعيداً نسبر اغوار التاريخ ، ونكشف حقائقه ونحن نعيش واقعاً جلياً يوضح القضية من جميع جوانبها .

أفليست تركيا المسلمة من الدّ اعداء القومية العربية ؟

الا تحتضن هذه الدولة المسلمـــة اسرائيل المسخ ؟ وتشترك معها ومع بريطانيـــا وفرنسا في التآمر ضد القوميـــة العربية المتوثبة ؟ والتي تنتفض من جديد لتستعيد مركزها في العالم ، ولتحمل رسالتها في الخير والسلام بعد ان فرض عليها الاستعمار هذه الهجعة الطويلة .

أفلا نجد تركيا المسلمة ، تطل من وراء كل مؤامرة اجنبية تكيد لهذه الامة التي

تنشد السيادة والحرية ، فاذا بالارض التركيـــة مسرح حيكت عليه وتحاك كل مؤامرات الاستعمار ، واذا بالمسؤولين هناك اقطاب في تدبيرها ؟

وايران والباكستان المسلمتان ، الا تحالفان مستعمرينا وناهبي خيراتنا دون ان تردعهما رابطة الدين .

رسالة المواطن العربي :

في هذه الفترة الحاسمة من تاريخنا وحياتنا ، وفي هذه الايام العصيبة التي تمر بها دنيا العرب وهي تحارب الاستعمار بكل ما تملك من بأس وقوة ، وتتطلع الى الغد المشرق ، وتناضل الخونة والجواسيس وتجار الوطنية ، فتخوضها معركة حياة او موت ، معركة شعب اصيل ذي حضارة وامجاد ، معركة شعب يتطلع الى الماضي يستمد منه عزماً وايمانا وتصميما ، وتصهره الآم الحاضر فيحاول ان يخلق من كل ذلك مستقبلا جديراً بامته ، وان يتابع الرسالة الخيرة التي بشّر بها اجداده .

في هذه الايام يجدر بكل مواطن ان يعي هذه الحقيقة، وهي ان رسالة القومية العربية الجديدة، هي رسالة القومية التي لا تعرف العصبية او الحقد ، رسالة القومية المتفتحة، التي تود ان تعيش مع باقي القوميات في سلام وامان، لا استعمار ولا استغلال ولا عبودية .

هذه القوميـــة التي تضمنا مسيحيين ومسلمـــين ، ساهمنا جميعاً في بناء صرح حضارتها، وامتزجت دماؤنا جميعاً في معاركها ، انها ارث لكل منا ؛ لم يورثنا اياها نبي من انبياء الله؛ولا حملنا اياها دين من الاديان ، بل كونتها لنا طبيعة حياتنا وسر ارتباطنا .. ارضنا هذه التي نحيا من خيراتهـــا ، ونتنشق نسماتها ، ونحرث سهولها ووديانها ، ونسكن جبالها وشطـآنها .

اجل ان العروبة هي واقعنا الذي لاغنى لنا عنه ، وحاضرنا الذي لا حياة لنا بدونه ، ومستقبلنا الذي لا وجود لنا الا به ...

نداء ونصيحة :

وليعلم الضائعون وراء سراب الاستعمار ، ان كل كيـــان في الاوطان العربية لا يستند الى عنصرالوطنيةالعربية،هو كيان اعرج أبتر، وان كل دولة تبني أركانها لهدف ديني ، وعلى طريقة طائفية كاسرائيل مثلا ، هي دولة فاشلة ،تحييها الظروف وتميتها الظروف ، وتقويها المناسبات وتفنيها المناسبات ، وانها تحمل طبيعة فنائها في ذاتها ، وسر زوالها بتكوينها .

ونصيحة اخيرة الى المبهورين بدعاية السوء ، الوجلين من العروبة ، نصيحة الى هؤلاء ألا تغرهم بهارج الاستعمار ، فسرعان ما يقلب لهم ظهر المجن ، ويتحول منهم اليهم اذا اقتضت ظروفه ومصالحـــه . وليعلموا ان كانوا غيارى على ابناء وطنهم ان العروبة اسمى درجات الوطنية وارقى مراقيها .

ان معركتنا مع الاستعمار هي المعركة الفاصلةمعركةالمصير الى الاجيال القادمة ومبدأنا الذي لايتحول هو : نحن عرب قبل موسى وعيسى ومحمد .